

القواعد اللغوية وسنة التطور

(الدكتور داود عبده)
جامعة الكويت

الدراسات المقارنة بين اللغات السامية (1) وقد طبقت العربية قاعدة تحول الـ P الى صوت مستمر أي الى فاء ، على الكلمات المقترضة من لغات اجنبية كما تدل الامثلة التالية :

فردوس ، فندق ، اسفنج (من اليونانية)
فرند ، فلفل ، فولاذ (من الفارسية) (2) .

غير ان الـ P قد اخذت في العصر الحديث تتحول الى نظيرها المجهور ، أي الى باء ، كما تدل اسماء مثل باريس وباكستان الخ . ويبدو أن القاعدة الاخيرة قد حلت محل القاعدة الاولى منذ زمن طويل ، ففي العربية كلمات مقترضة من لغات اجنبية حولت فيها الـ P الى باء ، لا الى فاء :

القواعد اللغوية تختلف ، كما هو معروف ، من لغة الى لغة . بل من لهجة الى لهجة . غير ان وجود قاعدة لغوية معينة في لغة ما ، او لهجة ما ، لا يعني ان هذه القاعدة تظل حية الى الابد . فهناك كثير من القواعد تطبق فترة من الزمن ثم تجدد ، أي يتوقف تطبيقها على المفردات الجديدة التي تدخل اللغة . وسأعرض في هذا المقال عددا من القواعد الصوتية التي كانت موجودة في اللغة العربية ، او ببعض لهجاتها ، ثم توقف تطبيقها في مرحلة لاحقة :

1 - تحول الـ P الى فاء :

لم يكن في اللغة السامية الام فاء ، والفاء الموجودة في العربية (والاثيوبية) عن P كما تدل

(1) انظر : S. Moscati, An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages, Weisbaden, 1964, pp. 24-25 and 43-45

(2) اصل هذه الكلمات على التوالي هو : pandhokiyon, paradhisos : سpongos يزيد parano بلبل pelpel بولاد Polad

وقد اقترضت الكلمة الاولى باعتبارها جمعا (مراديس) واشتق منها المفرد (فردوس) . انظر الامثلة السابقة وغيرها في كتاب غرائب اللغة العربية لرفائيل نخله ، الطبعة الثانية ، بيروت ، 1959 .

بطاقة - بطريق (من اليونانية)
امراطور ، بترول (من اللاتينية) (3)

2 - تحول الجيم الى ياء :

اصلية . مرغم انها تاريخيا منتقلة عن جيم . الا انهم يتعلمونها باعتبارها اصلية في الكلمات التي تقع فيها . كالياء في يد ويلمب . وهذا لا يختلف عن تعلم الفاء في كلمات مثل فعل او فقد فيجن جميعا نتعلمها باعتبارها اصلية ، لا باعتبارها منتقلة عن P . ولكننا اذا عربنا كلمة جديدة من لغة اجنبية ، تحتوي على P ، فاننا لا نحول هذه الـ P الى فاء ، رغم ان اسلافنا في الماضي قد فعلوا ذلك .

3 - تحول الذال والثلة والظاء :

تحولت الاصوات الثلاثة السابقة في كثير من اللهجات العربية من اصوات مستمرة الى اصوات غير مستمرة ، اي الى دال وتاء وضاد على التوالي :

ذنب (يفتح النون) —> ذنب

كثير —> كثير

عظم —> عظم

غير ان القاعدة السابقة قد توقف تطبيقها في مرحلة لاحقة ، واصبحت الاصوات السابقة تحول في الكلمات التي دخلت تلك اللهجات (من النصحي او من لغات اجنبية) من اصوات غير صفيرية الى اصوات صفيرية ، اي الى زاي وسين وزاي منخفة على التوالي :

ذنب (يسكون النسون) —> زنب

ثمررة —> ثمررة

عظيم —> عزيم (بزاي منخفة)

بل ان بعض ابناء هذه اللهجات يطبق في عصرنا الحاضر القاعدة الاولى على كلمة ما في حديثه العادي

تحولت الجيم الى ياء في بعض لهجات الخليج كما هو معروف ، فاصبحت رجال . ريال ، الجمعة : اليمة ، الخ . غير ان هذه القاعدة توقف تطبيقها وهي لا تطبق الآن على الجيمات التي دخلت اللهجة في مرحلة لاحقة سواء كان ذلك بانتقال الجيم المصرية (g) جيم ، كما في جدر وجدام وجاسم الخ (4) او في الكلمات المقترضة حديثا من لغات اجنبية مثل كراج ، او من النصحي مثل جامعة . اي ان دخول قاعدتي تحول الجيم الى ياء ، والجيم المصرية الى جيم كان بالترتيب التالي :

اولا : ج ثم ي

ثانيا : (g) ثم ج

وهو ترتيب نستنتجه من واقع اللهجات ، لا من وثائق تاريخية . فلو كان الترتيب بعكس ذلك لتحولت الجيم في مثل جدر وجدام وجاسم الى ياء ، فاصبحت يدر ويدام ، وياسم على التوالي ، لان القواعد الصوتية لا تميز بين الجيم الاصلية والجيم المنتقلة عن (g) اذا كانت موافقة في الكلمة واحدة .

وقد يقول قائل : ما دامت قاعدة تحويل الجيم الى ياء لم تعد مطبقة ، فلماذا لا يكف ابناء هذه اللهجات عن تحويل الجيم الى ياء في الجمعة ورجال الخ ؟ والجواب ان الياء في اليمة وريال الخ . لا تعتبر بالنسبة لابناء هذه اللهجات محولة من جيم ، بل تعتبر

(3) انظر المرجع السابق .

(4) الجيم التي تحولت الى ياء هي نفس الجيم الموجودة في النصحي ومعظم اللهجات العربية المعاصرة وقد كانت في اللغة السامية الام جيم مصرية (g)

واما الجيم الموجودة في جدر وجدام وجاسم الخ ، فهي تقابل القاف النصحي (قدر ، قدام ، قاسم) والجيم المصرية (g) في كثير من اللهجات البدوية والهمزة في كثير من اللهجات العربية الاخرى . ولا بد ان القاف في العربية الام قد تحولت الى جيم مصرية اولا ثم الى جيم ، اذ ليس من الطبيعي ان تتحول القاف وهي صوت لهوي غير مجبور ، الى صوت انفسى حنكى مجبور دون ان تصبح قبل ذلك صوتا اقصى حنكى مجهورا .

ويطبق القاعدة الثانية على الكلمة ذاتها حين يلفظها في معرض قراءة النصحى (او التحدث بها) (5)

كثير	كثير (عامية)
كثير	كثير (نصحي)
ذهب	ذهب (عامية)
ذهب	ذهب (نصحي)
ظل	ظل (عامية)
ظل	ظل (بزازي منخنة) نصحي

4) حذف الهمزة اذا كانت أحد صحيحين متواليين في بداية الكلمة :

مرت على اللغة العربية (او بعض لهجاتها) نبرة كانت تحذف فيها الهمزة في اول الكلمة اذا كانت « ساكنة » ، اي متطوعة بصوت صحيح (كما في خذ وكل ومر) او تالية مباشرة لصوت صحيح تبدأ به الكلمة (كما في سل) :

أَحْذَ (ء خ ء ذ)	خَذَ (خ ء ذ)
هَالَ (س ء ل)	هَلَّ (س ء ل)

غير ان هذه القاعدة لم تعد تطبق . وفي اللهجات المعاصرة لا تحذف الهمزة في الموقعين السابقين ، كما يتضح من الامثلة التالية في اللهجات التي تحولت فيها القاف الى همزة :

ثَلَبَ (ق د ي ب)	إَلَبَ (و ليس ي ب)
مَطَعَ (ق ط ع)	أَطَعَ (و ليس ط ع)
مُصَفَّ (ق ص ف)	أُصَفَّ (و ليس ص ف)
مُتَعَّ (ف ق ع)	إِنَاعَ (و ليس م ع)

اي ان ما تطبقه هذه اللهجات هو القاعدة العامة التي تضيف « همزة وصل » وحركة منعا للبدء بـ

« الساكن » ، اي تجنبنا للبدء بصحيحين متواليين .

ويبدو ان قاعدة حذف الهمزة في الموقعين السابقين لم تعم جميع اللهجات العربية القديمة ، فالنصحي تجيز أسأل الى جانب سل ، والامر الى جانب مر (6)

5 - حذف الهمزة «الساكنة» بعد همزة «متحركة»

من التواعد الصوتية المعروفة في العربية قاعدة حذف الهمزة « الساكنة » اذ تلت همزة « متحركة » وإطالة العلة القصيرة (الحركة) التالية للهمزة الاولى:

أَئِن	أَمِن
أَلَام	إِيلَام
أَأَمِن	أُومِن

ولكن هذه القاعدة لم تعد تطبق على الهمزات التي دخلت اللهجات المعاصرة :

أَقْدَر	أَأْدَر (و ليس آدَر)
إِثْلَب	إِأَلَب (و ليس إيلب)

6 - القلب المكاني بين شبه العلة والعلة :

يقع في العربية قلب مكاني بين شبه العلة والعلة التي من جنسها اذا وقعتا بهذا الترتيب في منتصف الكلمة : (7)

يَقُولُ (ي-ق-و-ل)	يَقُولُ (ي-ق-و-ل)
يَسْتَوِيلُ (ي-س-ت-و-ل)	يَسْتَوِيلُ (ي-س-ت-و-ل)
يَسْتَوِيلُ (ي-س-ت-و-ل)	يَسْتَوِيلُ (ي-س-ت-و-ل)

اما اللهجات المعاصرة التي تحولت فيها الجيم الى ياء ، فلا تطبق القاعدة السابقة على الامثلة التي

(5) في الواقع ان المتكلم لا يطبق القاعدة الاولى بالمفهوم الدقيق لكلمة « تطبيق » مما قلناه من لفظ الجيم ياء في بعض لهجات الخليج ينطبق هنا ايضا ، لان المتكلم تعلم كلمات مثل ذهب وديل ، وتالت وكثير ، وعضم وضم ، على ان الدال والتساو والضاد فيها اصلية .

(6) وقد ورد في القرآن الكريم : « وأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (لقمان : 31) « واسأل القرية التي كنا فيها » (يوسف : 21) الخ .

(7) ثم تتحولان الى علة طويلة (ضمة طويلة او كسرة طويلة)

(8) من اللهجات العربية التي تطبق قاعدة تنصير العلة الطويلة في هذه الحالات اللهجة الشامية وقد اصبحت الامثلة السابقة : حلتها واخترني وحبكم وظرفنا (بزازي منخنة) على التوالي .

تحتوي على مثل هذه الباء .
يستعمل يستعمل (وليس يستعمل)

7 - تقصير العلة الطويلة :

تتصر العلة الطويلة في المربية اذا وقعت قبل صحيح « ساكن » ، اي قبل صحيحين متوالين :

احتار + ت احتارث (قارن : احتارث ، احتاروا)

يقول + ن يقلن (قارن : يقولون ، يقولان)

يبيع + ن يبعن (قارن : يبيعون ، يبيعان)

وفي معظم اللهجات المعاصرة لا تطبق القاعدة السابقة في الامثلة التي طرا فيها « السكون » (نتيجة سقوط الحركات الاعرابية) :

حالتة	حالتة
اختارني	اختارني
حببيكم	حببيكم
ظروفتنا	ظروفتنا (8)

ويبدو ان قاعدة تقصير العلة الطويلة هذه قد توقف تطبيقها منذ امد طويل جدا . ففي النصحي لا

تتصر العلة الطويلة اذا تلاها صحيح « ساكن » نتج « سكونه » عن حذف العلة القصيرة الواقعة بين صحيحين متلين :

حائل حال (وليس : حائم)

ومما يؤيد هذا الاستنتاج ايضا ان العلة الطويلة في النصحي تتصر اذا وقعت قبل صحيح « ساكن » في آخر الكلمة بشرط الا يكون ذلك « السكون » ناتجا عن حذف الحركة الاخيرة للوقف :

عصا (نعل) + ت عصت

عصا (اسم) + ن عصن (عصا)

اما عند اسقاط الحركة الاخيرة للوقف ، فان العلة الطويلة لا تتصر ، ف جواث (بسكون الباء) لا تصبح جاث ، وكريم (بسكون الميم) لا تصبح كرم الخ.

ونستطيع ان نستنتج من كل هذا ان توقف تطبيق قاعدة تقصير العلة الطويلة اذا وقعت قبل صحيح « ساكن » قد ترا من مع سقوط الحركة الاخيرة في اللهجات المربية ، سواء كان سقوطا نهائيا او للوقف .